أسلوب القرآن الكريم
في خطاب النبي محمد (صلى اللّه عليه وآله وسلم)

م.م جعفر منير بشير
كلية الكوت الجامعة – قسم علوم القرآن والتربية الاسلامية
الكوت– واسط –العراق ||٥٢٠٠١||
Jaafar.muneer@alkutcollege.edu.iq

الخلاصة:
افتتح القرآن الكريم عدداً من السور والآيات القرآنية بمخاطبة النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد تنوعت أساليب الخطاب بتنوع السياق والمقام الذي ترد فيه الآية القرآنية، فنجد بعض بدايات السور تبدأ بالمخاطبة بالاسم كما في بداية سورة (طه)، وكذلك في بداية سورة (يس)، وكذلك نجد الخطاب بالحال هو أحد الطرق الاساليب التي يخاطب بها النبي محمد "ص" في القرآن الكريم كما في سورتي المزمل والمدثر، و نجد أيضا بعض الآيات القرآنية تخاطب النبي "ص" بـ (ياء لنداء)، مضافا إليها صفته كـ (نبي) في أكثر من آية قرآنية. وكذلك باستعمال صفته كـ (رسولا) في سورة المائدة، و قد جاء على ثلاثة محاور ولأهمية الموضوع في بيان أسلوب الخطاب القرآني مع النبي محمد (ص) في جميع المواقف والأحوال التي حصلت في بعثة النبي (ص) بدءاً من نزول الوحي إلى الدعوة السرية والعلنية، وصولاً إلى إتمام النبوة بآية التبليغ. لذا جاء هذا البحث لبيان بعض من طبيعة الخطاب القرآني على طوال بعثة النبي باعتبار إطّراد جزئيات البحث في أكثر من سورة قرآنية، وسيقتصر البحث على المحاور الأساسية؛ لنترك البحث في طرق الخطاب وأساليبه المتنوعة بالإضمار واستعمال الأفعال والبناء للمعلوم وغيرها في طرق التعبير القرآني وأساليبه التي تأتي بحسب السياق.

الكلمات المفتاحية: أسلوب الخطاب، الخطاب القرآني، النبي محمد (ص)

The Style of Holy Quran in the Speech of The Prophet Muhammad (God's Blessings Be Upon Mohammed and His Immediate Family)

Asst. Lecturer Jaffar Muneer Basheer
AL Kut University College/Department of Quranic Sciences and Islamic Education / AL Kut_ Wasit /Iraq/52001
Jaafar.muneer@alkutcollege.edu.iq

Abstract

The Holy Quran opened several chapters and Qur'anic verses by addressing the Prophet Muhammad (may God's prayers and peace be upon him and his family). The methods of discourse varied according to the context and the location. So, you will find that some chapters begin the address with a name, as at the beginning of the chapter (Taha) and the beginning of Surah (Ya-Seen). Likewise, we find that a discourse on the situation is one of how the Prophet Muhammad (PBUH) is addressed in the Holy Quran, as in the two chapters of Al-Muzammil and Al-Muddathir. We also find some Qur'anic verses addressing the Prophet (PBUH) with (Ya to call), in addition to his description as (Prophet) in more than one Qur'anic verse. His features as (messenger) are also used in Surat Al-Ma'idah. came on three axes and the importance of the subject in explaining the method of the Qur'anic discourse with the Prophet Muhammad (PBUH) in all situations and situations that occurred during the mission of the Prophet (PBUH), starting from the revelation of the revelation to the secret and public call, to the completion of the prophecy. With the verse of reporting. Therefore,

this research came to clarify some of the nature of the Qur'anic discourse along the length of the Prophet's mission, considering the progression of the research details in more than one Qur'anic surah.
We will confine the paper to the principal axes and leave the research on the various ways and methods of discourse by implication, the use of verbs, the construction of the known, and other methods and methods of Qur'anic expression that come according to the context.
Keywords: Discourse Style, Quranic Discourse, Prophet Muhammad (PBUH)

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين و أفضل الصلاة وأتم التسليم على النبي محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين.

أما بعد فإنَّ البحث في كتب الله وما فيه من إعجاز وتَحدٍّ يجعل الباحث أمام كم هائل من القضايا المختلفة، وهو الذي أُنزل لهداية الناس وإنذارهم؛ ولأهمية الموضوع في بيان أسلوب الخطاب القرآني مع النبي محمد (ص) في جميع المواقف والأحوال التي حصلت في بعثة النبي (ص) بدءاً من النزول الوحي إلى الدعوة السرية والعلنية، وصولاً إلى إتمام النبوة؛ لذا جاء هدف هذا البحث لبيان بعضاً من طبيعة الخطاب القرآني على طوال بعثة النبي باعتبار إطّراد جزئيات البحث في أكثر من سورة قرآنية، وبلحاظ هذا نجد أن بعض الخطابات قد وردت في سورتي المزمل والمدثر وهما من أوائل ما أُنزل من القرآن الكرم انتهاءً بآية التبليغ التي ابتدأت بخطاب "((يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ))" وهي من أواخر ما نزل على النبي محمد "ص"، وقد جاء تقسيم البحث على ثلاثة محاور هي:

أولا: الخطاب بالاسم:

ثانياً: الخطاب بالحال:

ثالثاً: الخطاب بالصفة:

وسيقتصر البحث على هذهِ المحاور الثلاثة؛ لنترك البحث في طرق الخطاب وأساليبه المتنوعة بالإضمار واستعمال الأفعال والبناء للمعلوم وغيرها من طرق التعبير القرآني وأساليبه، و جاءت في نهاية البحث خاتمة تبين أبرز النتائج، ثم قائمة المصادر و المراجع.

توطئة:

افتتح القرآن الكريم عدداً من السور والآيات القرآنية بمخاطبة النبي محمد (ص) وقد تنوعت أساليب الخطاب بتنوع السياق والمقام الذي ترد فيه الآية القرآنية، فنجد بعض بدايات السور تبدأ بالمخاطبة بالاسم في سورة طه: "((طه مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ))" (طه: ١-٢)، وكذلك في "قوله تعالى: ((يسٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ))" "يس: ١-٢"، وكذلك نجد الخطاب بالحال هو أحد الاساليب التي يخاطب بها النبي محمد "ص" في القرآن الكريم كما في سورتي المزمل والمدثر: "قال تعالى: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ))، "قال تعالى: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ))"، ونجد أيضا بعض الآيات القرآنية تخاطب النبي "ص" بـ (ياء لنداء)، مضافا إليها صفته كـ (نبي) "قال تعالى: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ))" (الانفال: ٦٤) وكذلك باستعمال صفته كـ (رسول) "قال تعالى: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ))" "المائدة: ٦٧"، وغيرها من الآيات القرآنية التي تبدأ بخطاب النبي "ص" بهذه المحاور الثلاثة التي ذكرت كمحاور أساسية للبحث.

أولاً: الخطاب بالاسم:

١- تبدأ سورة طه بخطاب النبي "ص": "((طه مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ))" "(طه: ١-٢)".

نجد في بداية هذه السورة الخطاب موجهاً للنبي محمد (ص) بأحد أسمائه في القرآن الكريم الذي أتّفق عليه جمع من المفسرين بقولهم إن الخطاب في بداية هذه السورة هو لشخص النبي محمد "ص"، قال الشيرازي: "آخر الكلام في هذه الآية أنَّ "طه" كـ "يس" قد أصبحت تدريجياً وبمرور الزمان اسماً خاصاً للنبي "ص" حتى إنهم يسمون آل النبي "ص" بـ "آل طه" أيضاً وعُبر عن الإمام المهدي "عجل الله فرجه" في دعاء الندبة بـ (يا بن طه)"[١]، ومطلق ما قاله كثير من المفسرين إن هذا النداء معروف بالعربية وهو نداء للرجل والقرآن الكريم قد جاء بأفصح مما تكلمت به العرب فلا يبعد أن المنادى هو شخص رسول الله "ص" وهذا ما استنتجه كثير من العلماء للأدلة والقرائن في أن الخطاب كان موجها للنبي صلوات الله عليه. ومن هذا قيل إنَّ: "(طه) منهم من يزعم أنها حرفان مثل (حم) ومنهم من يقول (طه) يعني: يا رجل في بعض لغات العرب."[٢]

٢- "قال تعالى: ((يسٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ))" (يس: ١-٣)

قال الشيرازي: "إن هذه الكلمة (يس) تتكون من (ياء) حرف نداء و (سين) أي شخص الرسول الأكرم "ص"، و عليه فيكون المعنى أنه خطاب للرسول "ص"[٣]و قيل أن المقصود بـ(يس) هو النبي محمد "ص" ولم يشك في ذلك أحد في وصفه إلا من لم تدرك بصيرته وذلك أن الله لم يسلم على أحد في القرآن الكريم إلا من الأنبياء فقال تبارك وتعالى "سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ" وقال في سورة الصافات: "سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ" وقال: "سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ" ولم يقل سلام على آل نوح، ولم يقل سلام على آل إبراهيم، ولم يقل سلام على آل موسى وهارون، وقال: "سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ" يعني: آل النبي محمد (ص)[٤]، وبلحاظ جمع من المفسرين نجد أنهم يتفقون على أن (يس) هو اسم للنبي محمد "ص" وهذا ما ورد عن أئمة أهل البيت (ع) في بيان تفسير الآية.[٥]

ثانياً: الخطاب بالحال:

جاء الخطاب للنبي محمد (ص) في القرآن الكريم بالحال في موضعين اختصهما الله تعالى في بداية الدعوة الإسلامية؛ لأن الدعوة لم تكن علنية لكي يخاطب بصفته كمبلغ أو مبين لأوامر الله تعالى وإنما جيء بالحال لتناسبه مع تهيئة الرسول محمد (ص) لأمر التبليغ، وما يكتنفه من مصاعب ومشاق يتم ترويضها بالعمل والفعل.

١- "قال تعالى: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا))" (المزمل: ١-٢).

المزمل معناه: "الذي قد تزمّل بثيابه، وتهيأ للصلاة، وهو رسول الله (ص)."[٦] وقيل معنى: "المتزمل عند العرب: الملتف بثيابه..."[٧] قيل: الواضح في هذه الآيات أنَّ المخاطب في هذه الآية هو الرسول "ص"، ولكن ليس بعنوان يا أيها الرسول، او يا أيها النبي، بل بعنوان آخر وهو: يا أيها المزمل؛ للإشارة إلى أن هذا ليس زمان التزمل والانزواء، بل زمان القيام والبناء الذاتي والاستعداد لأداء الرسالة العظيمة، واختيار وقت الليل لهذا العمل، أولا: لأن أعين الأعداء في سكون ونائمة، وثانيا: تتعطل الأعمال والمكاسب، ولهذا فإنَّ الإنسان يستعد للتأمل والتفكر وتربية النفس.[٨]

وقيل: "اعلم أنَّ المُزَّمل ليس من أسماء النّبي ولم يعرف به كما ذهب إليه بعض الناس وعدُّوه من أسمائه وانّما هو اسم مشتّقٌ من حالته التي كان (ص) عليها حين الخطاب وكذلك المدَّثر قيل في خطابه بهذا الاسم فائدتان: إحداهما: الملاطفة فإنّ العرب إذا قصدت ملاطفة المُخاطب وترك المعاتبة سمّوه باسم مشتّق من حاله الّتي هو عليها فقوله تعالى لنبيّه ((يا أيها المزمل قم)) فيه تأنيسٌ وملاطفة ليشعر أنّه غير عاتبٍ عليه. الثانية: التَّنبيه لكلّ متزّملٍ راقدٍ ليله ليتنبّه إلى قيام اللّيل وذكر الله تعالى فيه لأنّه الاسم

المشتقّ من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كلّ من عمل ذلك العمل واتَّصف بتلك الصّفة."[٩] و بطبيعة هذه المناداة التي تستعمل حال النبي للإبلاغ إنما هي لتفعيل وتهيئة النبي محمد (ص) للتنزيل الحكيم بكل الحالات.

٢- "قال تعالى: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ قُمۡ فَأَنذِرۡ" سورة المدثر (١-٢).

في هذه الآية القرآنية خاطب الله سبحانه وتعالى النبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بحاله من حالته التي عليها وهي الدثار وقيل في معناه: "المدثر لابس الدّثار؛ وهو ما فوق الشعار، وهذا الذي كان يرتديه النبي (ص) وهو الثوب الذي يلي الجسد، و منه قوله (ص): الأنصار شعار. والناس دثار. و هذا بعينه مفاد عبارة القاموس المتقدمة، و هذا هو المؤيد بإطلاق الآية الذي ليس فيه دلالة على أخذ النوم في مفاد المدّثّر، إن الدثّار هو الثوب المتعارف غير الشّعار –على أنواعه من العباء ونظائره– فيكون معنى قوله تعالى: ((يا أيها المدّثّر)) أي: لابس الدثار. و إذا تكرر ذلك من شخص في غالب حالاته وأوقاته، فيصح مخاطبته بذلك الوصف، كأنه صار عنواناً واسماً له، فلا يبعد أن يكون خطابه تعالى لرسوله "ص" من هذا القبيل."[١٠] و هذا أن الخطاب جاء على ما كان عليه الرسول من حال وقيل المدّثر يعني: "المتدثر بثيابه لينام."[١١] وقد أوضح الشيرازي طبيعة الحال : "ببيان أن لا شك في أنَّ المخاطب في هذه الآيات هو النبي (ص) وإنْ لم يكن تصريح باسمه؛ ولكن القرائن تشير إلى ذلك، فيقول أولا: "يا أيها المدثر" فقد ولى زمن النوم والاستراحة، وحان زمن القيام والنهوض والتبليغ وورود التصريح هنا بالإنذار مع أَنَّ النبي "ص" مبشر ونذير للقوم؛ لأن الإنذار له أثره العميق النفوس وفي إيقاظ الأرواح النائمة خصوصاً في بداية العمل."[١٢]

ثالثاً: الخطاب بالصفة:

رسم الخطاب القرآني للنبي محمد (ص) صورة متكاملة لأسس التبليغ والإخبار للشريعة الإسلامية، وبتعدد الخطاب القرآني نجد التنوع في أوجه الخطاب ما بين الخطاب بالاسم والخطاب بالحال وفي هذا المطلب سنبين وجه آخر من أوجه الخطاب وهو الخطاب بالصفة، ونجد هذا الأسلوب في استعمال الصفة بتكرر قوله تعالى في أكثر من آية قرآنية باستعمال "قوله تعالى: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ))"، وقوله تعالى: "((يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ))" ويتكرر الخطاب بـ "((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ))" في ثلاث عشر موضعاً في سور: (الأنفال، التوبة، الأحزاب، الممتحنة، الطلاق، التحريم). وبـ "((يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ))" في سورة (المائدة) في موضعين فقط، واستعمال القرآن الكريم لصفة النبوة والرسالة إنما يكون بلحاظ الهدف من الخطاب فعندما

يكون الهدف هو الإخبار بأوامر الله تعالى يستعمل قوله تعالى "((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ))" وإذا كان في معرض التبليغ يستعمل صفة الرسول بقوله تعالى: "((يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ))" قال الطباطبائي: "(النبوة معناها: تحمّل النبأ من جانب الله، والرسالة معناها تحمل التبليغ."[١٣] وعليه فإن استعمال لفظتي النبي والرسول إنما يكون بلحاظ تناسب الهدف في الآية القرآنية فعندما يراد من الخطاب الإخبار يستعمل صفة (النبي) وعندما يراد التبليغ يكون الخطاب بصفته كـ (رسول)، وسيكون هذا المطلب على قسمين نبين في الأول منه أسلوب الخطاب بـ "((يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ))" وفي الآخر يكون بالآيات التي ورد الخطاب فيها بـ ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ))".

القسم الأول: الخطاب بـ "((يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ))"

يخاطب الله سبحانه وتعالى في هذه الآية النبي محمد "ص" باستعمال صفته كرسول وهو استعمال قليل في القرآن الكريم وقد جاء في موضعين من سورة المائدة من دون استعماله في بقية الآيات القرآنية: "قال تعالى: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ))" (المائدة: من الآية ٤١)، جاء في تفسير المنار: "الخطاب بوصف الرسول تشريفي للنبي (ص) ولم يذكر إلا في هذا الموضع، وموضع آخر من هذه السورة، ومثله "((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ))" وورد في بضع سور. وفي هذا التشريف والتكريم تعليم وتأديب للمؤمنين يتضمن النهي عن مخاطبته بالاسم والأمر بأن يخاطبونه بالوصف، وكذلك كان يدعوه أصحابه: يا رسول الله، وجهل هذا الأدب من دخل حديثا بالإسلام من بعض الأعراب؛ لما كانوا عليه من سذاجة البادية وخشونتها فكانوا ينادونه باسمه: (يا محمد) حتى أنزل الله "قوله تعالى: ((لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ))" (سورة النور: ٦٣)"[١٤]

وقيل في تفسير "قوله تعالى: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ...))" "أنَّ نداء النبي (ص) بوصف النبوة دون اسمه العلم، إنما هو تشريف له بفضل هذا الوصف ليربأ بمقامه عن أن يخاطب بمثل ما يخاطب به غيره؛ ولذلك لم يخاطب في القرآن بغير "((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ))" أو "((يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ))"، بخلاف الإخبار عنه فقد يجيء بهذا الوصف كقوله: "((يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ))" (التحريم: ٨)، وقوله تعالى: "((وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ))" (الفرقان: ٣٠)، "((قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ))" (الانفال: من الاية: ١)، "((ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ))" (الأحزاب: من الاية: ٦)، ويجيء باسمه العلم كقوله "ما كان محمدٌ أبا أحد من رجالكم". وقد يتعين اسمه ليوصف

بعده بالرسالة كقوله تعالى: "((مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ))" وقوله: "((مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ))"(الأحزاب: من الآية: ٤٠)، وتلك مقامات يقصد فيها تعليم الناس بأن صاحب ذلك الاسم هو رسول الله أو تلقين لهم بأن يسموه بذلك ويدعوه به."[١٥] و يتضح مما سبق أن ذكر الاسم الصريح لم يكن إلا في حال الإخبار عن النبي (ص) لا الخطاب الموجه لشخصه كما في الآيات المتقدمة.

"قال تعالى: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ)) (المائدة: ٦٧)".

يخاطب الله سبحانه وتعالى في هذه الآية النبي محمد (ص) باستعمال صفته كرسول، قال الشيرازي: "إنَّ لهذه الآية نفساً خاصاً يميزها عما قبلها وعما بعدها من آيات، إنها تتوجه بالخطاب إلى رسول الله (ص) وحده وتبين له واجبهُ فهي تبدأ بمخاطبة الرسول: "((يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ))" وتأمره بكل جلاء ووضوح أن بلغ ما أُنزل إليك من ربك، ثم لكي يكون التأكيد أشد واقوى – تحذره وتقول: وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، ثم تطمئن الآية الرسول (ص) – وكأن أمراً يقلقه– وتطلب منه أن يهدئ من روعه وأن لا يخشى الناس: فيقول: "((وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ))."[١٦] و قيل "هذه الآية هي الوحيدة في القرآن الكريم التي تخاطب النبي الكريم (ص) بلغة تهديدية إن هو كتم أو لم يبلّغ ما أنزل إليه، فإن جهوده في الدعوة إلى دين الله طيلة ٢٣ سنة ستذهب هباءً، إذن، يجب سبر فحوى الرسالة المهمة التي يريد إيصالها بهذه الطريقة الملفتة."[١٧]

و "تتعلق هذه الآية بخلافة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) وتنصيبه للولاية في غدير غم حين عودة النبي الأكرم (ص) من حجّة الوداع."[١٨]

ولما في هذا البلاغ من عِظم الأمر نجد استعمال هذا الأسلوب؛ لأن الله في هذا النص القرآني قد أمر النبي الأكرم ببلاغ ما وصل إليه إبراهيم الخليل عليه السلام وهو مقام الإمامة الذي سأل الله عز وجل ان يجعله في ذريته لما للإمامة من عِظم واستكبار في نفس إبراهيم فلم يسأل النبوة أو الرسالة أو الخلةَ، وإنما سأل الإمامة لذريته فكان جواب الله تعالى أنها تكون لغير الظالمين منهم: "قال تعالى: ((وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ)) (سورة البقرة: ١٢٤)" فعدم نفي حصول الإمامة في ذرية إبراهيم واقتصارها على الصالحين في أبناء إبراهيم يؤكد حصولها في ذرية إبراهيم، قال الطاهر بن عاشور: "الذُّريَّة نسل الرجل وما

توالد منه ومن أبنائه وبناتهِ."[١٩] ومن كلام الله تعالى وحديث الرسول الذي لا ينطق عن الهوى الذي يبين استمرار الإمامة في ذريته إبراهيم بدءاً بالإمام علي عليه السلام والعترة الطاهرة وهم ذرية إبراهيم الذين عهد الله إليهم بالإمامة، وبلحاظ تتبع النص القرآني نجد أن "قوله تعالى: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ))" لم يستعمل إلا في موضعين وفي هذا الموضع يتبين أن صفة النبي محمد (ص) هي التبليغ وإظهار أوامر الله للعباد لذلك جاء الخطاب من الله جل وعلا باستعمال صفة النبي (ص) كرسول وقرنها بلفظ بصيغة الأمر (بلغ) الدال على وجوب العمل وعدم التأني والتوكيد والقط بوجوب الفعل في إخبار الناس لما يحمله ذلك الخبر من قضية كبرى وأساس توازي من حيث الأهمية جميع رسالات عصر النبوة فقد وضع هذا التبليغ بقبال كل ما قد فعله النبي طيلة ٢٣ سنة من التبليغ، أما جلب صيغ التهديد والوعيد بالحفظ والتطمين إنما جيء به لبيان أهمية الأمر[٢٠]، و من هذا قيل بوجوب تناسب لغة الخطاب مع طبيعة الهدف، قيل: "يجب أن تتناسب طبيعة الخطاب مع طبيعة الهدف، ذلك أنّ الهدف هو إبلاغ الرسالة وإيصالها إلى المستمعين."[٢١]

القسم الثاني: الخطاب "بقوله تعالى: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ))"

تكرر الخطاب للنبي محمد (ص) بـ "((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ))" في أكثر من موضع في السور والآيات القرآنية وفي موضوعات وسياقات مختلفة، واستعمال هذا الخطاب كان في بعضها يستعمل حالات الحسم والقطع بالأوامر الإلهية وباستعمال صيغة فعل الأمر مثال (جاهد، حسبك، حرض، قل، اتقِ) "قال تعالى: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ))" (الانفال: ٦٤، ٦٥)، قيل في تفسير قوله تعالى: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ)) أن: "النداء للنبي (ص) وكان النداء بـ (يا) التي تكون للبعيد، لبعد الشرف في موضوع النداء وهو الاعتماد على الله والالتقاء بحمايته."[٢٢] "هذا خطاب من الله تعالى لنبيّه (ص) يقول له يكفيك أن يكون ناصرك على أعداءك هو الله تعالى والّذين اتَّبعوك من المؤمنين أعني بهم المهاجرين والأنصار."[٢٣] وقيل: "يا أيّها النبي الله تعالى كافيك وكافي من اتّبعك من المؤمنين."[٢٤] وبلحاظ استعمال حرفي النداء (اليا و أي) مع التنبيه بضمير الهاء وذكر صفة النبوة مع استعمال صيغة فعل الأمر

(حسبك، حرض) هو للدلالة على أن المُخاطب قريب من الله في كل الأحوال وأنَّ الله ناصره في كل الأحوال.

"قال تعالى: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ))" (الأنفال: ٧٠). قيل أن: "النبي وقائد الحكومة الإسلاميّة مأموران بالحوار مع الأسرى وهدايتهم، وينبغي معاملة الأسرى معاملة طيبة لكي نمهّد لهدايتهم وإرشادهم."[٢٥] و هنا يتضح أن الله قد أوكل مهمة الحوار مع الأسرى للنبي (ص) لما في ذلك من أهمية في إبراز محورية القيادة، وكذلك لما يتميز به من الخُلق والرحمة بالعباد الذي سينعكس إيجابا في نفوس الأسرى وهدايتهم إلى الإسلام. فأورد صفة النبوة باعتبار مركزها في الإسلام.

"قال تعالى: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ))" (التوبة: ٧٣ والتحريم: ٩). ذكر أن: "الخطاب في الآية للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وللمؤمنين معه وكان الخطاب للنبي ابتداء؛ لأنه القائد الأعلى ولأنه الهادي والمرشد والموجه"[٢٦] ، وقد تكررت هذه الآية في سورتي التوبة والتحريم وفيها خطاب من الله بالأمر بمجاهدة الكفار والمنافقين؛ لإيقافهم عن عداءهم للمسلمين، قيل: "أمر الله تعالى نبيّه في هذه الآية أن يجاهد الكفّار والمنافقين والجهاد على ما قيل هو ممارسة الامر الشّاق؛ لأنّه مشتّق من الجهد وهو قد يجب باللسان وقد يجب بالقلب وقد يجب بالجميع فمن أمكنه الجميع وجب عليه جميعه ومن لم يقدر باليد فباللّسان فإن لم يقدر فبالقلب"[٢٧] ، والقرآن الكريم في هذه الآية يحدد مفاهيم أساسية للمسلمين منها: أن الجهاد يجب أن يكون من شخص النبي القائد وبأمره باعتباره ولي أمر المسلمين، وكذلك بيان أن الجهاد يكون لكل الأعداء سواء كان العداء ظاهري كالكفر أو داخلي كالنفاق لذلك قرن الجهاد بلفظ (أغلظ) لكي بكون الجهاد للمنافقين بالشدة عليهم في القول والفعل، وأيضا أن هذا لا يتنافى مع رحمة ورأفة الرسول وإنما تقييد الشدة والغلظة يكون للكافرين والمنافقين على سواء.[٢٨]

"قال تعالى: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا))" (الأحزاب: ١) قيل إنَّ : "كلمة (أيها) بعد حرف النداء (ي) يراد منها لفت غير المخاطب أيضاً؛ فعندما يقال: يا رسول الله، فإن المخاطب هو النبي (ص) فقط، وأما عندما يقال: يا أيها الرسول، فكأنّه يقال: أيها الناس! أنا أنادي الرسول."[٢٩] ، و"الخطاب للنّبي والمراد به جميع الأمّة والوجه في تعلّق الخطاب به (ص) في هذه

الآية وغيرها من الآيات هو أنّ القرآن منزّلٌ عليه من الله تعالى فهو المُخاطب بالآيات ظاهراً وجميع الأمة باطنا."[٣٠] ، وقيل: "نعم أنَّ الله خاطب الأنبياء بأسمائهم وخاطب محمّداً (ص) بغير اسمه كما قال: "يا آدم، يا موسى، يا عيسى، يا نوح، يا داود، يا صالح." وهكذا ولم يخاطب محمّداً (ص) إلاّ فيما أراد تعليم النّاس بأنّه رسول الله مثل قوله: "((مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ))" ومن المعلوم أنّ هذا في الإخبار وأمّا في النّداء فلم يأت الله باسمه أصلاً بل قال يا أيّها النبي، يا أيها الرسول وليس هذا إلاّ تشريف له (ص) وكرامة."[٣١] ، وهذا الخطاب الذي اختص به رسول الله إنما هو خطاب تشريف لبيان منزلة ومكانة النبي عند الله جل وعلا، وهو كما ذكر، أنه خطاب تشريف له بفضل هذا الوصف ليربأ بمقامه عن أن يخاطب بمثل ما يخاطب به غيره.

"قال تعالى: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا))" (الأحزاب: ٢٨)، استعمل في هذه الآية بعد النداء فعل الأمر (قل) الدال على القطع والحسم لبيان أن البقاء مع النبي لا يكون إلا وفق ما أراده الله جل وعلا من حياة للنبي محمد (ص)، قيل: "بعد أن نال المسلمون الغنائم من الحرب، طلبت بعض زوجات النبي الأكرم "ص" أن يوسع عليهم في حياتهم، ورفض رسول الله "ص" ذلك، وهجرهم لشهر كامل حتى نزلت الآيات."[٣٢] وفي هذه الآية: "أمر الله نبيّه أن يقول لأزواجه، إن كنتن تُردن الحياة الدنيا وبقاءها وزينتها فتعالين أمتعكنّ، أي أعطيكنّ من مالي بقدر ما تتمتعنّ به وأسرحكنّ، الإسراح الإرسال يقال سرحت الإبل سرحاً وسروحاً، أي رعت بنفسها وقوله: "((سراحاً جميلاً))" معناه واضح والسّراح الجميل عبارة عن التّطليق على وجه التراضي."[٣٣]

"قال تعالى: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا))" (الأحزاب: ٤٥-٤٦) "في الآيتين بيان لدور النبي الأكرم (ص) في المجتمع، فهو يدعو الناس إلى الله جل وعلا، ووسيلة هذه الدعوة التبشير والإنذار، ولكن باللسان والعمل، فهو بذلك يكون الحجة و القدوة."[٣٤] و نجد استعمال النداء للنبي ولكن الخطاب للمسلمين أيضا وبيان وظيفة النبي هي التبليغ والإنذار وهداية للناس بخلقه العظيم كما عبر عنه في القرآن.

"قال تعالى: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي

مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ))" "الممتحنة: ١٢"، وجه الله سبحانه وتعالى الخطاب للنبي (ص) مبينا قبول بيعة المؤمنات ولكن بذكر شروط محددة تلخص كل الأفعال القبيحة التي كانت تقوم بها النساء في الجاهلية، وهذا الإخبار بالأحكام لم يكن فقط لمن دخلن في الإسلام وبايعن وإنما لكل من دخلت الإسلام.

"قال تعالى: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ))" (الطلاق: من الآية ١) قيل: "أن قوله تعالى الخطاب للنبي ولجميع الأمة ولكن خصَّه الله تعالى بالذِّكر لأنّه الرَّئيس المقدَّم جرى سبحانه في ذلك على المتعارف في توجه الخطاب إلى أشرف القوم فيما يراد منهم ويرشد إلى ذلك التّعبير من الحكم بصيغة الجمع والإجماع على أنّ حكمه في الطلاق حكم أمته."[٣٥]، فقد بين الله بهذا الخطاب حكم المعاشرة الحسنة بالوصال والفراق لترك عادات الجاهلية من إذلال للمرأة حين فراقها.

"قال تعالى: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ))" "التحريم: ١"، قيل في تفسير الآية القرآنية إنَّ: "الخطاب لرسول الله، والمراد بالتحريم هنا مجرد الامتناع والالتزام بالترك لتطييب خاطر من تحسن العشرة معه تماماً كما لو ألزمت نفسك بترك الدخان إرضاء لزوجتك التي يؤذيها ذلك.. فليس المراد بالتحريم هنا التحريم الشرعي."[٣٦]

الخاتمة

اتسم الخطاب القرآني للنبي محمد "ص" بنوع من الفاعلية ليثير لدى المستمع نوعاً من التلازم بين العقل ودلالة الآيات القرآنية وذلك عبر استعمال أسلوب النداء للتنبيه لإنتاج دلالة في نفس السامع واتصال دلالي بين المُخاطِب والمُخَاطَب. فقد استعمل الاسم والحال والصفة في خطاب النبي محمد "ص" ليحمل معنى الاستئناس للمُخاطَب بالاسم والحال، أما في استعمال الصفة فإنه يوجد مركزية تبين شرف ومنزلة النبي على سائر الخلق.

الهوامش:

الشيرازي: ٥٢٦/٩. [١]
الأخفش: ٤٢٢/٢. [٢]
الشيرازي: ١٣٠/١٤. [٣]
الكاشاني: ٢٠٢/٤. [٤]
السيوطي: ٢٥٨/٥. [٥]
الفراء: ١٩٦/٣. [٦]
أبو عبيدة: ٢٧٣/٢. [٧]
الشيرازي: ١٢٦/١٩. [٨]
النقوي: ٣٩٠/١٧. [٩]
الميانجي: ١٦٤/٢٩. [١٠]
الشيرازي: ١٥٥/١٩. [١١]
الشيرازي: ١٥٥/١٩. [١٢]
الطباطبائي: ٢٧١/١. [١٣]
رضا: ٣٢٠/٦. [١٤]
بن عاشور: ٢٤٩/٢١. [١٥]
الشيرازي: ٨٣/٤. [١٦]
قراءتي: ٣١٥/٢. [١٧]
قراءتي: ٣١٤/٢. [١٨]
بن عاشور ٧٠٥/١. [١٩]
قراءتي: ٣١٥/٢-٣١٦. [٢٠]
قراءتي: ٣١٨/٢. [٢١]
أبو زهرة: ٣١٨٢/٦. [٢٢]
قراءتي: ٦٥/٨. [٢٣]
قراءتي: ٣٣٢/٣. [٢٤]
قراءتي: ٣٤٠/٣. [٢٥]
أبو زهرة: ٣٣٧٥/٧. [٢٦]
النقوي: ٣٢٦/٨. [٢٧]
قراءتي: ٤٤٣/٣. [٢٨]
قراءتي: ٢٨٨/٧. [٢٩]
النقوي: ٤٥٨/١٣. [٣٠]
النقوي: ٤٥٩/١٣. [٣١]
قراءتي: ٣٠٩/٧-٣١٠. [٣٢]
النقوي: ٥٠٥/١٣. [٣٣]
قراءتي: ٣٣٥/٧. [٣٤]
النقوي: ١٨٨/١٧. [٣٥]
مغنية: ٣٦٢/٧. [٣٦]

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم

١. أبو زهرة ,محمد .زهرة التفاسير .دار الفكر العربي ,د.ت.

٢. أبو عبيدة ,معمر بن المثنى .مجاز القرآن .القاهرة :مكتبة الخانجي ,د.ت.

٣. الأخفش ,ابو الحسن .معاني القرآن . .Vol.الطبعة الأولى .القاهرة :مكتبة الخانجي1990 ,م.

٤. السيوطي ,جلال الدين .الدر المنثور في التفسير بالمأثور .بيروت لبنان :دار المعرفة, د.ت.

٥. الطباطبائي ,محمد حسين .الميزان في تفسير القرآن .قم المقدسة :جماعة المدرسين في الحوزة العلمية ,د.ت.

٦. الفراء ,أبي زكرياء يحيى بن زياد .معاني القرآن .مصر :الهيئة المصرية العامة للكتاب1972 ,م.

٧. الكاشاني ,محسن الفيض .الصافي في تفسير القرآن .Vol .الطبعة الأولى .ايران طهران :دار الكتب الإسلامية1413 ,هـ.

٨. الميانجي ,محمد باقر الملكي .مناهج البيان في تفسير القرآن .Vol .الطبعة الأولى .طهران :مؤسسة النبأ الثقافية , 2013م.

٩. النقوي ,محمد تقي .ضياء الفرقان في تفسير القرآن .Vol .الأولى .قائن :كوهر انديشه.1434 ,

١٠. بن عاشور ,محمد الطاهر .التحرير والتنوير .تونس :الدار التونسية للنشر , 1984.

١١. رضا ,محمد رشيد .تفسير القرآن الحكيم)تفسير المنار .Vol .(الطبعة الثانية. القاهرة :دار المنار1947 ,م.

١٢. قراءتي ,محسن .تفسير النور .بيروت لبنان :دار المؤرخ العربي2014 ,م.

١٣. مغنية ,محمد جواد .التفسير الكاشف . .Vol.الطبعة الرابعة .بيروت لبنان :دار الأنوار ,د.ت.

١٤. ناصر مكارم الشيرازي. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل. بيروت– لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ٢٠١٣م.